الخاصية الأولى

عقيدة التوحيد دين جميع الأنبياء

تأسست العقيدة الإسلامية على التوحيد الخالص لله تعالى، والإيمان به ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، وجسدت عقيدة التوحيد جوهر الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وهى قطب الرحى فى الخطاب الإلهى لجميع الرسل والأنبياء، كلمتهم على ذلك واحدة من أولهم إلى آخرهم، ونداؤهم إليها واحد: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (هود:٥٠) خاطب بها كل نبى قومه وأشار إليها القرآن الكريم باعتبارها العقيدة، الجامعة لدين الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾(آل عمران:١٩). وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥). كما تواصى بها جميع الأنبياء فيما بينهم، ابتداء من أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد -صلى الله عليهم جميعًا وسلم -قال تعالى:﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٢)، وتوارث هذه الوصية ذريته من بعده، فقال يعقوب لذريته: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٣)، ودعا بها موسى ربه فقال: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٢٦)، كما دعا إليها عيسى قومه فقال لهم: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ واستجاب لها الحواريون فقالوا لعيسى عليه السلام:

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٥٢). ومن قبلهم دعا بها نوح عليه السلام فقال لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٥٢).

وكانت هذه العقيدة هى الدعوة الجامعة على لسان أبى الأنبياء إبراهيم لذريته من بعده فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٨). فاستجاب له ربه وبعث فى الذرية من يحمل لواء هذه الدعوة الخاتمة، دعوة التوحيد ملة إبراهيم حنيفًا، وجاءت الرسالة الخاتمة تصديقًا لدعوة الرسل السابقين إلى التوحيد الخالص لله، وحملت شعار الأنبياء السابقين: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢).

ومن ثم فقد استقرت عقيدة التوحيد على أنها دين جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣). كان الاعتقاد فيها والإيمان بها هو الحد الفاصل بين الإيمان بدين الأنبياء قاطبة والجحود بها قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ (البقرة:١٣٠)، وأصبحت هذه العقيدة أساسًا ومحورًا لكل تشريع ضابط لحركة الإنسان اليومية فى صباحه ومسائه، فى غدوه ورواحه وفى علاقاته المختلفة سواء فى ذلك علاقته بالله والكون، علاقته بنفسه، وبالمجتمع وما فيه، وجسد الرسول ﷺ هذه الأسس الجامعة فى قوله: /٤ «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**» /٤.

ولقد بيَّن القرآن الكريم الأصول الجامعة لهذه العقيدة والمسائل المتفرعة عنها. كما أشار فى آياته الكريمة إلى دلائل هذه المسائل، وأقام البراهين على صحتها، فجمع فى آياته بين أصول الاعتقاد، ومسائل الاعتقاد، ودلائل هذه المسائل، ولم يترك لأحدٍ فيها مقالاً بالزيادة عليها؛ أو النقصان منها، واجتمع عليها جيل الصحابة فى

عصر النبوة، ومن بعدهم جيل التابعين وتابعو التابعين، وتلقاها خلف الأمة جيلاً بعد جيل عن سلفهم، ينقلها السابق منهم إلى اللاحق، بدون تحريف ولا تبديل، فحملها من كل جيل عُدُولهُ حفظًا لها وعملاً بمقتضاها. مؤمنين بحفظ الله لها فى كتابة الكريم الذى تعهد الله بحفظه وبيانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

وقد جمع القرآن الكريم أصول هذه العقيدة فى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وفى آخر سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥).

وفى الحديث المتفق عليه أن جبريل أتى إلى الرسول ﷺ فى صورة دحية الكلبى؛ فسأله: /٤«**مالإسلام؟، فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إلى ذلك سبيلا، فقال له: ما الإيمان؟، فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره**»/٤.

وأجمعت الأمة خلفًا عن سلف على الإيمان بهذه الأصول، واتفقت عليها كلمتهم وتلقاها الأئمة بالقبول والإذعان فدعوا إليها؛ وحرروا مسائلها وضبطوا أدلتها وبراهينها جامعين فيها بين أدلة النقل الصحيح والعقل الصريح، مهتدين بنور الوحى

ونور العقل دون مظنة للتعارض أو التضاد بين النورين، معتقدين أن المؤمنين بهذه العقيدة هم أهل الولاية لله ورسوله، وأن الإيمان بها اسم جامع لاعتقاد القلب ويقينه، ونطق اللسان وإقراره، وعمل الجوارح وإذعانها، وأن يقين القلب بها هو الأساس لعمل الجوارح واشتغالها بالأوامر فعلاً، والنواهى تركًا وكرهًا، ومؤمنين أن كمال الإيمان وتمامه؛ لايكون إلا بالجمع بين أعمال القلب تيقنًا وإيمانًا، وإعمال الجوارح خضوعًا وإذعانًا.

وإن المعاصى لا تخرج المؤمنين عن الملة صغيرة كانت المعصية أو كبيرة؛ ما دام القلب بالله مؤمنًا، وبالأوامر والنواهى مقرًا ومتيقنًا، ولا كفران إلا بجحود ونكران لما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

وأهل القبلة هم أهل الملة، يصلى وراء البر منهم والفاجر، ووراء مستور الحال، ولا يقطع على واحد منهم بالجنة أو النار: /٤«**فمن صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم له ذمة الله ورسوله**»/٤.

وشفاعة الرسول حق لأهل الملة، تنال أهل الكبائر، فلا يحرمون من شفاعته صلى الله عليه وسلم، قال عليه السلام: /٤«**شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**»/٤.

وأصل الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه، والإيمان بوحدانيته وأنه واحد فى ذاته، فلا ند له، وواحد فى أسمائه، فلا مسمى له، وواحد فى صفاته، فلا مثيل له، وواحد فى أفعاله، لا شريك له، وجماع توحيده سبحانه، أن يقر المؤمن بإفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص فى القصد فى طاعته فيما أمر ونهى.

وأنه سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وأدلة وجوده سبحانه فاقت الحصر فلا يحيط بها عد. فقد فطر القلوب على معرفته، وجبلها على محبته والإيمان به، وجاء الوحى فزاد الفطرة نورا وهداية، ونبهها إلى ما هو مغروز فيها وأصيل فى بنيتها، قال ﷺ: /٤«**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»/٤، ثم نبه الوحى العقول إلى دلائل وجوده سبحانه، ودلائل وحدانيته بما أبهر العقول، وحير الألباب من الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس؛ فى كتاب الكون

المنظور، وخاطبهم بلغة البرهان ودلائل اليقين: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الطور:٣٥)، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان:١١).

كما نبه القرآن الكريم إلى الإيمان بصفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، كما ورد بها الذكر الحكيم من غير تحريف ولا تبديل، سواء فى ذلك؛ صفات الذات، كالسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، والحياة، أم صفات الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، أم الصفات الخبرية، كالمجىء، والإتيان، والاستواء...

وأنه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١)، فأثبت لنفسه أصل الصفات، ونفى المماثلة مع خلقه، فيؤمن المسلم بجميع ما وصف نفسه به فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ دون تساؤل عن الكيف فيثبتونها على ما يليق به سبحانه من الكمال والجلال دون تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، وكما أن ذاته ليس كمثلها شىء، فإن صفاته سبحانه ليس كمثلها شىء، وإن القول فى صفاته وأسمائه؛ كالقول فى ذاته سبحانه، يحتذى فيها حذوه، فما أثبته القرآن أثبتوه، وما نفاه القرآن نفوه دون سؤال عن الكيفية، فلا يحيط بها وهمٌ، وهم مجمعون على الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل.

وأجمعوا على الإيمان بكل ما أخبر به القرآن، وجاءت السنة الصحيحة من أمور الغيب:

ومنها الإيمان بالملائكة، وأنهم عباد الله مكرمون مفطورون على طاعته: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦)، وأنهم مخلوقون من نور، وهم مكلفون بما أمرهم الله به من أعمال، فمنهم حملة العرش: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ (الحاقة:١٧)، ومنهم حملة الوحى كجبريل: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

﴿ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٣ -١٩٤)، ومنهم ملك الموت، ومنهم خازن الجنان، ومنهم الحفظة، والكرام الكاتبين.

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان بعالم الجن، وأنهم مكلفون، فمنهم المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ (الجن:١ -٢) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ (الجن:١٤).

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان باليوم الآخر، وبالبرزخ، وعذاب القبر، وأن القبر أما روضه من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦).

وأن القبر أول منازل الآخرة، وللساعة أشراطها وعلامتها؛ منها الأشراط الكبرى، كخروج الدابة، ونزول المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى الإسلام، وقبله نزول المسيح الدجال، ومنها العلامات الصغرى، كبعثة محمد ﷺ، وتطاول رعاة الإبل فى البنيان.

ومن مسائل اليوم الآخر الإيمان بالبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، لورود النصوص الصحيحة الصريحة بذلك.

والإيمان بالقضاء والقدر؛ الذى هو سر من أسرار الله فى خلقه، حجب علمه عن النبى المرسل والملك المقرب، فلا يعلمه إلا هو، والإيمان به أصل فى الإقرار لله بربوبيته على خلقه قضاء وقدرًا وتدبيرًا، وإرادة وحكمة ومشيئة، فنؤمن بالعلم الشامل لكل ما كان وما يكون وما هو كائن، وأن كل ذلك مكتوب ومقدر فى اللوح المحفوظ وفقًا لعلمه السابق بذلك، وأن مشيئته نافذة فى خلقه إلى يوم القيامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيهدى المؤمنين به تفضلاً منه ورحمة، ويضل من عصاه عدلاً منه وحكمةً، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، وإن للعباد مشيئة: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان:٣٠)، وما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم لكن ليصيبه، وما قضى الله به كونًا فهو كائن لا محالة، ولا يجوز لأحد الاحتجاج بالقدر على معصيتة ارتكبها أو سيئة نالها. لأن تلك الحجة داحضة غير نافعة لأصحابها، وقد جمع الإمام أبو الحسن الأشعرى وغيره؛ هذه الأصول فى رسالته إلى أهل الثغر لما سألوه أن يبين لهم أصول الإيمان التى أجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولا خلاف بين الأئمة حولها، فذكرها ﷺ مسألة مسألة. فذكر فى مقام الألهيات ما أجمع عليه سلف الأمة من الإيمان بوجود الله، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، فذكر صفات الذات، والصفات الخبرية، وقال إن صفاته سبحانه كلها على الحقيقة ولا شىء منها على المجاز، لأن المجاز نوع من الكذب[1]، وأن وصفه بها من غير تكييف، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف لازم[2]، وأن أمره وقوله غير محدث ولا مخلوق، وهو سبحانه وتعالى يرضى عن الطائعين ويحبهم، ويغضب على العصاة ويسخطهم، وأنه فوق سماواته على عرشه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر:١٠) واستواؤه على عرشه ليس استيلاء لأنه سبحانه لم يزل مستوليًا على كل شىء، وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة على ما أخبر سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢ -٢٣)، وإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا يسأل عما يفعل لأنه سبحانه فعال لما يريد، وإنه عادل فى جميع أفعاله وأحكامه ساءنا ذلك أم سرنا، نفعنا ذلك أم ضرنا، وأنه قدر جميع أفعال خلقه وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم، واثبت ذلك فى اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ (القمر:٥٢)، وأنه سبحانه كلَّف عباده فعل الطاعات ونهاهم عن فعل المعاصى بعد أن أقدرهم على ذلك بسلامة الأدوات وصحة الأبدان، لأنه سبحانه عدلٌ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه سبحانه تفضل على من يشاء فحبَّب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان تفضلاً منه ونعمة،

وأنه لم يضل إلا الضالين والفاسقين والظالمين والكافرين، فهدى من اهتدى، وضل من أضل نفسه بسلوكه سبل الضلالة والغواية، وليس لأحدٍ أن يعترض على الله فى شىء من تدبيره، ولا إنكار شىءٍ من أفعاله، لأنه سبحانه حكيمٌ، قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع أفعاله لا تخرج عن الحكمة، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة بأيديهم وألسنتهم، إن استطاعوا ذلك، وإلا فبقلوبهم، وأنه لا يجب ذلك عليهم بالسيف، ولا بالقتال، إلا فى اللصوص والقطاع بعد مناشدتهم.

كما أجمعوا على وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله، كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن الكريم، وإن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها، وإن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن ما نالته يد التحريف منها ليس مما نزل به وحيه على رسله، وما صح منها يصدق بعضه بعضًا، وأن القرآن آخرها جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: ١٨ - ١٩].

وكذلك يجب الإيمان بجميع النبين والمرسلين، ما ورد ذكرهم فى القرآن الكريم تفصيلاً، ومالم يرد ذكره إجمالاً، فلا نفرق بين أحد من رسله، وتكذيب الواحد منهم كالتكذيب لجميعهم، وهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله، ومنهم أولوا العزم الذين ورد ذكرهم تفصيلاً فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:١٣)

وقد أيد الله جميعهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، فى دعوتهم إلى الله برسالاته ووحيه، وأنهم معصومون من الدنايا والخطايا كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم، وذلك بحفظ الله لهم وعصمتهم من القبائح، وهم موصفون بأحسن الأوصاف وأفضلها، من الصدق، والفطانة، والتبليغ، والأمانة، ويستحيل فى حقهم الكذب، والخيانة،

والسهو والنسيان فى التبليغ، وشأن الدعوة والرسالة، وهم كبقية البشر يمرضون ويصحّون ويجرى عليهم ما يجرى على غيرهم، من الفقر، والمرض، والأكل، والشرب، والنوم والزواج، والإنجاب، والحياة، والموت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف:١١٠).

وهم فى الأفضلية على ترتيب القرآن لهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣)، أفضلهم أولو العزم، وأولو العزم منهم خمسة أشارت إليهم الآية ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ وأفضل أولو العزم محمد ﷺ وهم جميعًا أخوه علات دينهم واحد وهو التوحيد والإسلام، وأمهاتهم شتى، وخص الله كل رسول بمعجزة تأييدًا له وتصديقًا له فى دعوته، فكانت معجزة إبراهيم فى عدم إحراق النار له، ومعجزة موسى تعددت مظاهرها من العصا واليد، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وكلها كانت معجزات حسية، ومؤقته انقضى أثرها بانقضاء زمانها أما خاتم الأنبياء محمد ﷺ فقد أيده الله بما سبق لإخوانه من الأنبياء بمعجزات حسية، كتسبيح الحصى، وتكثير الطعام، والإسراء والمعراج، ثم أيده بمعجزة معنوية، خالدة خلود الأبد، وهو القرآن الكريم، فوجب الإيمان بها جملة وتفصيلاً.

وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وكل من ولى شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة، واشتدت وطأته من برٍ وفاجرٍ لا يلزمهم الخروج عليهم بالسيف جار أو عدل، وعلى أن يغزو معهم العدو، ويحج بهم ويصلون خلفهم؛ الجمع، والأعياء، والجماعات.

وأجمعوا على أن خير القرون، قرن الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخير الصحابة أهل بدرٍ، وخير بدرٍ العشرة المبشرون بالجنة، وخير العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة، وأن ترتيبهم فى الفضل حسب ترتيبهم فى الخلافة، أبو بكر،

فعمر، فعثمان، فعلىّ، وأن إمامتهم كانت عن رضى منهم جميعًا، وإن جيل الصحابة، خير من جيل التابعين، وأجمعوا على الكف عما شجر بين الصحابة، فلا يذكرون الصحابة إلا بخير، وأنهم أحق أن تنشر محاسنهم، وتتلمس لهم أحسن المعاذير وأفضل المخارج لأفعالهم، وأن نظن بهم الظن الحسن لقوله ﷺ: /٤«**إذا ذكر أصحابى فأمسكوا**»/٤[٣].

وقوله: /٤«**لاتؤذونى فى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»/٤[٤].

وما وقع بينهم من خلافات دنيوية لا يسقط حقهم فى الفضل والخير، وأجمعوا على وجوب النصيحة للمسلمين، وأئمتهم والدعاء لهم، والتبرى من ذم أحدٍ من أصحاب رسول الله وأهل بينه. يقول أبو الحسن الأشعرى: "فهذه الأصول التى مضى الأسلاف عليها، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها، واقتدى بهم الخلف الصالح فى مناقبها، نفعنا الله وإياكم باجره، والحمد لله وحده، وهو حسبى ونعم الوكيل[٥].

وهذه المسائل التى ذكرها الأشعرى تمثل ثوابت العقيدة الإسلامية التى أجمع على الإيمان بها سلف الأمة، وهذه الأصول الإيمانية لا مجال فيها للقول بالرأى والاجتهاد، وقد حفظ القرآن الكريم لنا هذه الأصول، وتلقتها الأجيال بالقبول جيلاً بعد جيل، واستقرت عليها كلمة المسلمين، ولا يجوز لأحد إن يتقدم بين يدى الله ورسوله؛ بالقول فيها بالزيادة عليها أو النقص منها، بل كلهم مجمعون على الإيمان بها، فجزأهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، كما اجتهدوا -رضى الله عنهم- فى بيان أن القرآن الكريم قد جمع فى حديثه عن هذه الأصول الإيمانية بين أمرين منهجيين:

الأمر الأول: ذكر هذه المسائل وبيانها للأمة.

الأمر الثانى: دلائل هذه المسائل وبراهينها، فلم يذكر القرآن مسألة من مسائل العقيدة إلا ذكر معها برهانها العقلى الذى تضمنه دليلها النقلى، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم، كأدلة القرآن على وجود الله ووحدانيته، ودلائل البعث

والحساب، فإن القرآن الكريم يقدم الآية كدليل نقلى معصوم، وفى نفس الآية نجدها تتضمن البرهان العقلى المعلوم.

وذلك كاستدلال القرآن على التوحيد بضرب الأمثلة البرهانية التى هى فى صميمها قياس منطقى ضمنى، وكاستدلال القرآن على وجود الله بالاستفهام الإنكارى المتضمن للإقرار الضرورى بوجود الخالق، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾، وكاستدلال القرآن على البعث بالنشأة الأولى فإن ذلك قياس عقلى برهانى يسمى قياس الأولى.وهكذا نجد القرآن الكريم حين يذكر مسائل العقيدة يذكر معها دلائلها نقلاً وعقلاً.

٢ - خصائص العقيدة الإسلامية:

تتميز العقيدة الإسلامية بخصائص باينت بها جميع العقائد الأخرى، وضعية كانت أو سماوية طالتها يد التحريف والتبديل.

١ -من أهم خصائص العقيدة: أنها **عقيدة ربانية:** تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظها من التبديل والتحريف؛ بالزيادة عليها أو النقصان منها، ذلك أن مصدرها هو الوحى من كتاب الله، وسنة رسوله، وقد حفظ الله كتابه الكريم من أن تناله يد التحريف والتبديل كما وقع فى الكتب الأخرى قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، قد تواترت بها النصوص، وتناقلتها الأجيال محفوظة فى الصدور، ومسطورة فى الكتب، تحوطها عناية المشتغلين بها، يحملها من كل جيل عدو له، يحدوهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر:٧)، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٣١).

والرسول ﷺ قد بين لهم هذه الأصول الإيمانية؛ أفضل بيان وأقومه، وقبل أن يموت ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ

﴿ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، فما زادوا، ولا بدلوا، ولا حرفوا، وقال صلى الله عليه وسلم: /٤«**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»/٤. فاعتصموا ﷺ بما جاءهم به نبيهم عن ربهم سبحانه وتعالى عن ذاته وصفاته، وعن القدر وأحواله، وعن اليوم الآخر وما جاء عنه. ولم يترك الرسول ﷺ لأحدٍ فى ذلك مقالاً؛ يتقدم به بين يدى الله ورسوله، وكل من قال فى ذلك بغير ما جاء به الوحى المعصوم، فقد قال عن الله وفى الله وعلى الله مالم ينزل به عليهم سلطان، وقال على الله بغير علم، وكل ماتنازع فيه الناس فى ذلك يجب رده إلى الله ورسوله، فجاءت هذه العقيدة بأصولها وفروعها نصًا من كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، فتمسكت بها الأجيال وتناقلها العلماء، محفوظة فى صدورهم بحفظ الله لها، أو مسطورة فى مؤلفاتهم أمنًا وأمانًا لها من التبديل أوالتحريف، فهى ربانية المصدر، قرآنية الأصل، مأخوذة من مشكاة أنوار النبوة المعصومة، ونسأل الله أن نموت عليها، وأن نُبعث عليها، وأن تكون حجة لنا لا علينا.

٢ -أنها عقيدة فطرية:

قريبة من القلب، سهلة المأخذ، بسيطة فى تناول قضاياها، بعيدة عن تعقيدات الفلاسفة وجدل المتكلمين، خالية من أسرار الكهنوت وشعوذاتهم وخرافاتهم، ينفتح لها القلب إيمانًا وتقبلاً لها وائتناسًا بها، فلا يحس معها المؤمن بغربة، لأن أصل هذه العقيدة أمر فطرى مغروز فى كل بنى آدم مؤمنًا كان أو كافرًا، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم:٣٠)، وأشار إلى ذلك الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم: /٤«**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**/٤»[٦]، فعقيدة التوحيد ليست غريبة على فطرة الإنسان لأنه قد ولد عليها، وتجذرت فى فطرته، والرسل - صلوات الله عليهم -جاءوا ليذكروا بنى آدم بهذه الفطرة.

ومن مظاهر قربها إلى الفطرة، ما تتميز به هذه العقيدة من عوامل التيسير، ورفع

الحرج، ودفع المشقة عن الإنسان، مراعاة لظروفه وأحواله. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨)، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: /٤«**يسروا ولا تعسروا. بشروا ولا تنفروا، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**/٤»[٧].

وهذا الأمر قد فصل القول فيه علماء الأصول والفقهاء، مما يدل على مراعاة هذه العقيدة ظروف الإنسان وأحواله بما جبلت عليه من الإيمان بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، فلم تكن دعوة الرسل غريبة على هذه الفطرة ولا معارضة لها. وجاء في الحديث القدسي: /٤«**خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**»/٤، أي: حنفاء على ملة الإسلام وعقيدة التوحيد، وقد ربط كثير من العلماء قضية الفطرة بالآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢)، فقد أقر كل بني آدم لله بالربوبية في مرحلة وجودية سابقة؛ تسمى مرحلة (الذر) سابقة على الوجود العيني الحسي للإنسان، وكان هذا الإقرار السابق بمثابة الجذور والأساس للفطرة الإنسانية العارفة بربها المقرة له بالتوحيد، ولذلك لم تجد هذه الفطرة غربة في دعوة الرسل لها بالدعوة إلى الله والإيمان به، وأن ماطرأ على الفطرة من عوامل فساد البيئة من الشكوك والشبهات فإنه قابل للإزالة والشفاء منه. بتقبل دعوة الرسول، ومن هنا كان القرآن شفاء لما في الصدور، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

وكانت دعوة الرسل تذكيرًا بذلك، والقرآن نفسه قد سماه الله تذكرة

وذكرى، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (عبس:١١ -١٢) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق:٣٧)، والقرآن الكريم سمى وظيفة الرسول بالبلاغ والتذكير قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢١ -٢٢)، فالفطرة فى الإنسان أساس البناء المعرفى بالله فى الإنسان، والوحى مذكر بما فى هذه الفطرة من معرفة سابقة.

٣ -إنها عقيدة وسطية:

فهى وسط بين عقيدة التجسيم، وعقيدة التعطيل، وكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بعقيدتها قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣)، فهى وسط فى مسائل الأصول ومسائل الفروع فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولذلك كان الإسلام وسطًا بين الملل الأخرى، سواء كانوا أهل كتاب منزل أم كانوا أهل فلسفات وضعية.

فعقيدتنا وسطية بين اليهود الذين شبهوا الله بالإنسان، فوصفوا الله بالفقر فقالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران:١٨١) ووصفوه بالبخل فقالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة:٦٤) والنصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق فجعلوا لله ابنًا وجعلوه إلهًا، أو جزء من إله، أو ثالث ثلاثة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٠).

وعقيدتنا وسط فى النبوة والإيمان بالأنبياء، فإن اليهود فرطوا فى حق الأنبياء: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة:٧٠)، ووصفوا رسل الله بالزنا والكذب والخديعة.

أما النصارى فغلوا فى المسيح وجعلوه إلهًا، يُعْبَدْ من دون الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ (التوبة:٣١).

أما المسلمون فآمنوا بهم جميعًا؛ على أنهم بشر ورسل اصطفاهم الله لتبليغ رسالته: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ (البقرة:١٣٦).

وعقيدتنا وسط فى فروع الشريعة، فى مسائل الحلال والحرام، فاليهود قد حرم الله عليهم بعض الحلال بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله؛ قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]، وفى النصرانية نجد نبى الله عيسى يحل لبنى إسرائيل بعض ما حرَّم الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

أما المسلمون فقد أحلَّ الله لهم كل الطيبات، وحرَّم عليهم كل الخبائث، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ (الأعراف:٣٢)، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية وسطًا بين المغالى فيها والجافى عنها، فالمغالى فيها منبوذ والجافى لها منبوذ والوسطى فيها ممدوح ومأجور.

٤ -إنها عقيدة برهانية:

تأسست على البرهان الصادق المؤسس لليقين الجازم، فلا مجال فيها لتقليد الرأى، أو المذهب، أو الشيخ، ولا مجال فيها للكهنوت والخرافة والشعوذة، فالعقل فى عقيدتنا نور من نور الله فى الإنسان، كما أن الوحى نور من نور الله للإنسان والنور لايضاد النور ولا ينفيه، ولا يعارضه بل يقويه ويرفده ويؤيده، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية مؤسسة على الجمع بين نور العقل ونور الوحى، والقرآن الكريم قد جعل العقل فى الإنسان أساسًا للتكليف الشرعى، فلا يكلف المجنون، ولا النائم، لا الصبى قبل البلوغ.

وإذا ذهب العقل من الإنسان سقط عنه التكليف بالشريعة أمرًا ونهيًا، وغنىٌ عن التفصيل هنا حديث القرآن عن العقل وأهميته ووظيفته فى الخطاب القرآنى[٨].

ومن المفيد هنا؛ أن نشير إلى أن القرآن الكريم، قد كلَّف العقل بالنظر والتأمل والتفكر فى عالم االشهادة. وجعل ذلك لعالم من سمائه إلى أرضه مجالاً لعمل العقل، وطلب منه الإيمان به، والبحث فيه وصولاً إلى اكتشاف قوانينه، ومن تمام نعمة الله على المؤمنين به أن كل قضية عقدية أمر بها القرآن، ساق بين يديها براهين صدقها ودلائل يقينها، علم ذلك من علمه، وجهل ذلك من جهله، حتى مسائل البعث والحساب، وكان من أظهر دلائل القرآن على ذلك، هو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ولك أن تراجع آخر سورة يس والآيات التى ختمت بها هذه السورة الكريمة، لتقف على دلائل قدرة الله على البعث واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٧٨ -٨٣).

فالآيات قدَّمت أكثر من برهان يقينى على إمكان البعث، والحساب والجنة، والنار، وورد مثل ذلك فى القرآن كثير.

واهتم القرآن الكريم بالأدلة العقلية، التى برهن بها على العقيدة ومسائلها بأكثر من صورة، أحيانًا فى صور ضرب الأمثال؛ التى هى فى جوهرها قياس عقلى ضمنى، وأحيانًا فى صورة المقدمات التى يلزم عنها نتائجها بالضرورة، وأحيانًا فى صورة الإستفهام التقريرى وأحيانا الإستفهام الإنكارى، وهذا التنوع فى الاستدلال يتناسب مع تنوع الطبائع البشرية، فلكل عقل مورده المناسب له، وبلغ من اهتمام الإسلام بإقامة البرهان وصحة العقيدة أن إيمان المقلد منهى عنه، وللعلماء فيه كلام يطول

شرحه، وتقليد الآباء والعلماء والأئمة حتى فى مسائل الأصول منهى عنه. ومن ظن أن المسلمين يتبنون مسائل العقيدة تبعًا لإمام معين أو تقليدًا لصاحب مذهب، فذلك ظن الجاهلين.

والإمام أحمد بن حنبل وهو إمام فى السلف قد نهى عن ذلك، وقال حكمته المشهورة: "لا يقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا أن يغلطوا"، لا تقلدنى، ولا مالكًا، ولا الثورى، ولا الشافعى، وكل الأئمة الكبار قد نهوا عن التقليد فى أصول الدين ولا يقبلون كلام العالم إلا مقرونًا بحجته وبرهانه، وجميع سلف الأمة يؤمنون بالبرهان ويجعلونه أساسًا فى بناء العقيدة، ودليلاً على مسائلها، ويحاربون التقليد ويذّمونه، ويجمعون فى مواقفهم بين نور العقل الصريح، ونور النص الصحيح دون مظنة للتعارض أو التناقض.

٥ -الشمولية:

من أهم خصائص هذه العقيدة أنها شاملة جامعة لأمور الدين والدنيا، فالدنيا فيها مزرعة للآخرة، وسلوك الإنسان فى الدنيا مقدمة ضرورية لحسابه أمام الله فى الآخرة، وجزائه فيها ثوابًا وعقابًا قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص:٧٧)، إنها عقيدة جامعة بين المادة والروح، شاملة لكل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة الدنيا إذا اقترن عمله بنية التقرب إلى الله، فالإنسان إذا تكلم أو سكت، إذا أحب أو كره، إذا قَبِلَ أو رفض، إذا تحرك أو سكن، فإن ذلك كله مشمول بهذه العقيدة قال صلى الله عليه وسلم: /٤«**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»/٤، وعلاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع وبالحاكم وعلاقته بالكون وما فيه، يجب أن تكون مشمولة بهذه العقيدة، ولذلك فقد ربط الإسلام سلوك الفرد وعلاقاته المتنوعة بالعقيدة الصحيحة، كما يربطها بالإيمان زيادة ونقصانًا، أو وجودًا وعدمًا. وقد جاءت الأحاديث الكثيرة لتؤكد شمول العقيدة لكل هذه العلاقات قال صلى الله عليه وسلم:

١ - /٤«**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»/٤.

٢ -/٤«**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله والناس أجمعين**»/٤.

٣ -/٤«**والله لايؤمن من بات شبعان وجاره جائع**»/٤.

٤ -/٤«**من غشنا فليس منا**»/٤.

٥ -/٤«**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**»/٤. الحديث

٦ - /٤«**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»/٤.

٧ -/٤«**عدلت شهادة الزور والشرك بالله**»/٤.

٦ -/٤«**المؤمن لايكذب**»/٤.

كما جسد القرآن الكريم شمولية هذه العقيدة؛ لكل سلوك إنسانى فى شكل الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة الإسلامية، قال تعالى:

١-﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل:٩١).

٢-﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٨).

٣-﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٢).

٤-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ (الحجرات:١١).

٥-﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة:١).

٦-﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ (المطففين:١، ٢).

7-﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ (النحل:٩٠).

٨-﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (البقرة:٢٦٣).

وعلى سبيل الإجمال، فإن العقيدة الإسلامية، شاملة لكل سلوك أخلاقى سلبًا أو إيجابًا، وكانت القيم الأخلاقية فى مجالها العملى السلوكى تطبيقًا واقعيًا للإيمان بهذه العقيدة، وأثرًا من آثارها، ولذلك كانت الأخلاق فى الإسلام مظهرًا لكمال الدين، وبخاصة كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وقال: «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**».

وأُحيل القارئ الكريم؛ إلى الربط القرآنى بين هذه العقيدة وشمولها لكل ما أمر الله به ونهى عنه، قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥١ :١٥٣).

وتكرر هذا فى القرآن كثيرًا حيث تجد الأوامر والنواهى الأخلاقية تلبس ثوب العقيدة الدينية، لتكتسب بها قداستها فى الاعتقاد بها ووجوب تنفيذها، باعتبارها مظهر الكمال الإيمان وصحيح الاعتقاد.

٧ - عقيدة تكريم الإنسان وحريته:

احتل الإنسان فى العقيدة الإسلامية مكانة ومكانًا لانظير لهما فى أى عقيدة أخرى، فلقد كرَّمه الله وجعله خليفة له فى الأرض، وائتمنه على هذا الكون ليعمره

بمنهج الله، جاء ذلك فى القرآن الكريم فى صيغة القرار الإلهى الملزم لكل مؤمن بالله ورسوله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الإسراء:٧٠).

وتعددت مظاهر تكريم الإنسان فى القرآن الكريم، وجعل القرآن ذلك التكريم جزء أساسيًا فى الاعتقاد، فمن مظاهر تكريم الإنسان:

١ -أن الله خلقه بيديه وأمر الملائكة بالسجود له، وأن الله سخر له مافى السموات وما فى الأرض، قال تعالى: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (لقمان:٢٠).

٢ -ومن مظاهر تكريم الإنسان: أن جعل الإنسان فاعلاً بحريته وإرادته وليس بمقتضى الطبع، أو الغريزة، وجعله حرًا فى عقيدته لا سلطان لأحدٍ عليها إلا الله، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦)، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، أعملوا ما شئتم. وذلك يعد بيان الحجة ووضوح المحجة حتى لايكون لأحد حجة بعد البيان.

٣ -ومن مظاهر التكرم أن الله جعله خليفة له فى أرضه أمينًا على الكون وما فيه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠).

فجمع بينه وبين الكون فى صحبة دائمة، ووحدة وجودية، تجلت مظاهرها فى صور متعددة، فمنها وحدة البدء، ووحدة المصير، فالكل خلق من خلق الله، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان:١١).

وتجلت فى وحدة التكوين والعنصر المادى، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (نوح:١٧)، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦) فإن عناصر الكون المادى واحدة سواء تشكلت فى هيئة إنسان، أو حيوان، أو نبات، أو حشرة. فالكل أصله ترابى المصدر.

وتجلت هذه الوحدة فى وحدة النظام الحاكم للكل، ووحدة القانون المسيطر على

كل ذرة فى هذا الكون، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)،﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢). فإن الحيوان، والنبات، والإنسان، والرياح، والأمطار والأفلاك خاضعة لهذا التقدير كمًا وكيفًا.

وتجلت هذه الوحدة كذلك فى أن مصدر هذا النظام واحد وليس متعددًا. قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف:٥٤)، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ (يونس:٣١). فالذى خلق هو الذى سوى، وهو الذى قدَّر الأمر، وهو الذى يبث الأمر فى المخلوق بقدر معلوم، زمانًا ومكانًا، كمًا وكيفًا، فعالم النبات له أمره، وعالم الإنسان له أمره، وعالم الحيوان وعالم الأفلاك كذلك، لأن الأمر كله لله. هذه الوحدة الشاملة للوجود كله بداية ونهاية، نظامًا وقانونًا، تقديرًا وأمرًا، من شأنها أن تبعث فى الإنسان روح الألفة مع الكون، والمودة مع بنى الإنسان، والتعاون والتواد مع المجتمع كله. وتلك قضية عقدية من خصوصيات الإسلام، وهى على جانب كبير من الأهمية يظهر أثرها جليًا فى العلاقات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والمجتمع، وبين الإنسان والكون، فالكل مصدره واحد، ومصيره واحد، وقانونه واحد، وخالقه واحد، ومالك ناصيته واحد، وهذه كلها روافد لتشكيل علاقة المؤمن بغيره، وتؤسس فى القلوب الاعتقاد بوحدة الإنسانية؛ مبدأً، ومصيرًا، وقانونًا حاكمًا للكل، فيسود مبدأ المساواة بين بنى البشر، فكلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود، وتتحقق معجزة الحكمة القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) ويبقى اختلاف اللون واختلاف اللسان واللغة مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، وآية من آيات الله فى خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

وحرية الإنسان فى الإسلام دين وفريضة فلا عبودية إلا لله، وعلى قدر ثقتك بالله وحسن توكلك عليه تكون قابضًا بزمام حريتك، فلا سلطان لأحد عليك وإذا استعنت فاستعن بالله، وعلى قدر خشيتك له فى الغيب، يخشاك الناس فى الغيب والشهادة، وعلى قدر فناء إرادتك عند رؤية إرادته، يسخر لك ما يحقق لك إرادتك وعند التحقق من عبوديتك له يتحقق لك حريتك مما سواه.

حاجة الإنسان إلى العقيدة

أ - العقيدة ضرورة اجتماعية:

خلق الله الإنسان وجعله مفطورًا على حب الاجتماع، يألف ويؤلف، و تلتقى كلمة الإنسان مع كلمة الأنس فى الاشتقاق اللغوى تأكيدًا لهذا المعنى، فلفظ الأنس والإنسان و الائتناس بينها تقارب فى المعنى والاشتقاق، و يلتقى معهم الفعل أَنس ويأْنس ويأْتنس وكلها تدور حول معنى الاجتماع البشرى الذى يتحقق به وفيه كل هذه المعانى الإنسانية، فحب الاجتماع البشرى خاصّية إنسانية ولهذا نجد علماء الاجتماع يعرفون الإنسان بأنه كائن اجتماعى.

ونزلت الأديان السماوية لتثبت بمبادئها هذا المعنى النبيل، وتعمل على تنميته وشيوعه بين بنى البشر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات:١٣).

وفى الآثار النبوية: «**إن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[٩]، و٤/«**المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»/٤. والرسول ﷺ كان حريصًا على أن يعلم أمته مفاتيح القلوب التى تشيع بها المحبة بين المسلمين، وينتشر الود والتراحم فقال صلى الله عليه وسلم: /٤«**ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم**. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **أفشوا السلام بينكم**»/٤.

والاجتماع البشرى لابد أن ينشأ عنه -ضرورة- اختلاف فى الأهواء والرغبات، وتعارض فى المصالح، والنفوس البشرية بطبعها فيها حب الأثرة، وحب الرياسة، وحب العلو فى الأرض، ومن سنن الله فى كونه أن يوجد فيه الشىء وضده، فيوجد الغنى وبجانبه الفقير، والصحيح وبجانبه المريض، والضعيف وبجانبه القوى، والعالم والجاهل، غير ذلك من الأضداد التى تقتضيها سنة التدافع البشرى، ولابد أن تنتج هذه المتضادات اختلافاً فى الآراء، والمقاصد والغايات، وتتعدد وجهات النظر وتتصارع الأفكار، كل فريق يبحث عن مصلحته قبل الفريق الآخر، وهذا أمر واقع ومشاهد فى جميع المجتمعات،قد يسميه البعض بصراع الطبقات كما فى بعض - المذاهب الاقتصادية كالماركسية مثلاً، فهو واقع يعيشه المرء ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التدافع البشرى باعتباره سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود:١١٨).

كما أشار القرآن أيضًا إلى أن هذه السنة ماضية فى الاجتماع البشرى إلى قيام الساعة تقتضيها طبيعة العمران والاجتماع البشرى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة:٢٥١)، وقال أيضًا: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(الزخرف:٣٢).

وهذا التدافع هو أحد مظاهر التجمع البشرى فى كل عصر وفى كل بيئة.

وفى وسط هذا الاجتماع البشرى المزدحم بالمتناقضات، فالمصالح متضاربة، والأهواء والرغبات متعارضة، والتفاوت كبير بين مستويات الفقر والغنى، والصحة والمرض، والضعف والقوة، ولابد لهذه المتضادات من ضابط يحكم حركتها لتكون فى خير المجتمع كله، فلا تكون لحساب طبقة أو فئة على حساب أخرى، لابد من ضوابط تنتظم بها العلاقات المتبادلة بين هذه المتضادات، ولابد أن تكون هذه

الضوابط متعالية على الأغراض الشخصية أو الطبقية؛ ليتحقق بها الخير لكل الطبقات، ولتسعد بها كل فئات المجتمع، وليس فى مكنة البشر أن يضعوا هذه الضوابط المتعالية عن كل هذه الشبهات، لأن ذلك ليس من طبائع البشر، ولقد أثبت التاريخ والواقع المعاصر أن كل قانون تضعه طبقة اجتماعية حاكمة؛ فإنه يهدف دائما إلى تحقيق مصالحها على حساب الطبقات الأخرى، وكم شقيت طبقات فى المجتمعات البشرية لتسعد طبقات أخرى باسم القانون، وكم قضى أناس سواد ليلهم يفترشون الثرى ويلتحفون العرى ليهنأ غيرهم باسم القانون وكم... وكم عانت المجتمعات البشرية من ويلات القوانين التى يضعها البشر.

ولذلك كان لابد لهذه الضوابط التى تحكم حركة المجتمع أن تكون من مصدر فوق مستوى الشبهات، فوق مستوى الأهواء والمصالح الطبقية أو الفئوية، وهذا لا يتحقق أبدًا إلا إذا كان مصدر هذه الضوابط متعاليًا عن أهواء البشر وأغراضهم، وذلك لا يتأتى إلا من الوحى الإلهى، وما سنه للبشرية من تشريعات لتنظيم جلب المصالح ودرء المفاسد للناس جميعًا، فإن مقاصد الشريعة وأهدافهما الكبرى، تدور كلها حول هذين الغرضين "**جلب المصالح ودرء المفاسد**"، لكل الناس، الفرد والمجتمع على سواء، وفى ضوء هذه المقاصد الشرعية تتحدد علاقة الأفراد والجماعات، وتنتظم علاقة الفرد بالمجتمع، والحاكم بالمحكوم الرجل والمرأة، العالم والمتعلم، الغنى والفقير، القوى والضعيف، وبعبارة جامعة تنتظم فى ضوئها شبكة العلاقات الاجتماعية لتتوجه حركة المجتمع كله لتحقيق الأهداف الكبرى التى تهدف إليها مقاصد الشريعة، وتسعى إلى تحقيقها فى المجتمع.

لقد فشلت القوانين الوضعية؛ فى تحقيق هذه المقاصد فى المجتمعات، وينبغى أن ننبه هنا إلى أن المقاصد الكلية للشريعة إذا كانت تأخذ الصفة الدينية إلا إنها فى حقيقتها وضعت لتحقيق مصالح المجتمع الإنسانى، فهى مقاصد اجتماعية أضفى عليها الشرع صفة القداسة الدينية بنسبتها إلى الشرع، لتستقر قداستها فى قلوب المؤمنين لتصير هدفًا وغاية يحرص الجميع على تحقيقها من منطلق إيمانه بالعقيدة الدينية، فتكون ممارستها عنوانًا على إيمان صاحبها والالتزام بها.

إنه لا منقذ للبشرية من الاضطراب الذى تعيشه إلا فى الاعتقاد فى أوامر الوحى ونواهيه، والأخذ بها والعمل بمقتضاها، على مستوى الفرد والجماعة وأنظمة الحكم.

لقد كثرت التشريعات وتعددت القوانين، ومع ذلك فإن الجرائم فى زيادة مطردة كمًّا وكيفًا، ومظاهر الفساد تموج بها حركة المجتمع فى كل جوانبه، والسبب فى ذلك كله يرجع إلى عدم المصداقية التى تستمد منها القوانين هيبتها.

إن الوحى السماوى يستمد هيبته من نزاهة مصدره، ويكتسب ثقة المؤمن من يقين المؤمن واعتقاده بعدالة المصدر وقداسته عن الغرض والهوى، إن إيمان المسلم واعتقاده فى ربه ينعكس فى سلوكه التزامًا بأوامر الله ونواهيه، إن العقيدة الصحيحة هى التى تخلق فى المؤمنين نوعًا من الرقابة الذاتية على المرء فى سلوكه والتزامه، فيكون هو رقيبًا بنفسه على نفسه حين يغيب عنه الرقباء، تحقيقًا لمعنى الإحسان الذى أشار إليه الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١٠]. وفى مثل هذا المستوى، تتجسد مسئولية المؤمن عن ضبط سلوكه وحياته كلها بضوابط الشرع أمرًا ونهيًا، فلا يحتاج إلى رقابة خارجية، وفى هذا المستوى أيضًا تتجسد مسئولية المؤمن عن نفسه، وعن مجتمعه، إن ضوابط المجتمع وأهدافه تتحقق كلها فى حراسة هذه العقيدة الراسخة فى القلب المؤمن بها، وتتجاوز هذه الضوابط دائرة الجائز والممكن اجتماعيًا لتأخذ حكم الحلال والحرام دينيًا لارتباطها بهذه العقيدة، ولذلك نجد الرسول ﷺ يربط هذه العلاقات الإنسانية بضوابطها الشرعية، ويجعلها دليلاً على الإيمان وجودًا وعدمًا، وكم من الأحاديث النبوية التى تجسد لنا هذا المعنى وتربطه بالإيمان ربطًا محكمًا على مستوى علاقات الأفراد والجماعات، قال صلى الله عليه وسلم: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[١١].

وقال: «**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث.. وخيرهما الذى يبدأ السلام**»[١٢].

/٤«**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن**». قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «**من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم**»/٤.

«من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[١٣].

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١٤].

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن...»[١٥].

«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[١٦].

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا»[١٧].

«إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[١٨].

«من غشنا فليس منا»[١٩].

«عدلت شهادة الزور الشرك بالله»[٢٠].

/٤«لن يدخل الجنة عاق لوالديه»/٤.

«لن يدخل الجنة قاطع رحم»[٢١].

/٤«الكلمة الطيبة صدقة»/٤.

«لا إيمان لمن لا أمانة له. ولا دين لمن لا عهد له»[٢٢].

أرأيت كيف ربط الرسول ﷺ هذا المستوى الراقى من المعاملات بأصل العقيدة وهو الإيمان.

إن إيمان المرء بهذا المستوى من العلاقات الإنسانية الراقية يستمد قداسته من سمو الاعتقاد وقوة اليقين بالله، من امتلاء القلب خشية لله ورسوله، من نور الإيمان الذى أضاء حياة المؤمن بهدى الوحى، فانعكس على المجتمع كله بهذه العلاقات الإنسانية. دون أن يفرضها قانون أو يشرعها سلطان أو يحرسها سيف السلطان، بل إن حارسها الوحيد هى عقيدة المؤمن فى الله ورسوله.

وعلى مستوى الحكم ورعاية المجتمع. نجد نصوص الوحى تضىء للإنسان طريق العدل؛ الذى به تستقر الممالك، وتزدهر الحضارات، وتنضبط حركة المجتمع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ (النحل:٩٠)، ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (النساء:٥٨)، ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾

(المائـــدة:٤٨)، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ (المائـــــدة:٨)، ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (ص:٢٦)، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطـــــلاق:٢)، ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة:٢٨٣)، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران:١٠٤)

وقال صلى الله عليه وسلم: /٤«**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**». قالها ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس ثم قال: **ألا وقول الزور. ألا وشهادة الزور**»/٤. وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[٢٣]. وقال فى خطبة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم**»[٢٤]. وعلى مستوى بناء الأسرة المسلمة. نجد قوله صلى الله عليه وسلم: /٤«**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**»/٤. «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى**»[٢٥].

«**خياركم خياركم لنسائهم**»[٢٦]. /٤«**تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس**»/٤. «**تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر، بذات الدين تربت يداك**»[٢٧]. /٤«**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه**»/٤.

ونجد قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:١٩)، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ (النساء:٣٥)

هذه نماذج قليلة امتلأت بها كتب السنة النبوية شرحًا وتوضيحًا لما جاء فى القرآن الكريم من ضوابط لحركة المجتمع المسلم الذى يعيش فى نورٍ من هدى النبوة وكلها تتعلق بتنظيم العلاقات الاجتماعية على مستوى الفرد والجماعة لتتحقق بها

مصالح الأمة وتدفع عنها مضارها، يلتزم بها المسلم من منطلق إيمانه بالله فيكون المؤمن الفرد هو المسئول عن تطبيقها وهو الحارس عليها أمام نفسه وأمام الله، ولا يحتاج فى ذلك إلى رقيب من خارج نفسه لأنه الأمين عليها.

وهذا الاعتقاد هو الذى يعطى لهذه الضوابط قداستها الدينية وقيمتها ومكانتها الاجتماعية، وإذا لم يكن للقانون الذى يحكم المجتمع رصيد عقائدى فى القلب فلا تكون له هيبة ولاثقة فيه. وهذا هو الفارق الأساسى بين القوانين الوضعية والأوامر الإلهية، لأن كل قانون يستمد هيبته من مكانة واضعه وصاحبه، ولعل ما يعيشه المجتمع المعاصر من فساد واضطراب؛ يرجع فى الكثير من جوانبه إلى خلل القوانين التى تحكم المجتمع.

إن مسئولية المسلم عن أوامر الوحى ذات شقين، يتمثل الشق الأول منهما: فى كون الإنسان مطالب أولا: بتطبيقها على نفسه وتنفيذ ما جاء فيها، ومطالب ثانيًا: بحماية هذه الأوامر وحراستها من العبث بها، «**فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»، «**ومن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» وفى رواية «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٢٨].

وتستمد مسئولية الإنسان عن هذين المستويين قوتها من مسئوليته عن قوة الاعتقاد، ويقين الإيمان، فتصونها قداسة العقيدة عن العبث بها، أو الإهمال فيها، أو التفريط فى تنفيذها، وإذا تطرق الخلل أو الإهمال إلى هذه المبادئ فإن ذلك ينال من صحيح الاعتقاد وكمال الإيمان.

وهذا ما تفتقده دساتير البشر وقوانين الاجتماع.

إن شبكة العلاقات الاجتماعية لو تأسست على هذه المبادئ العقائدية فإنها تجعل من المجتمع كله أفرادًا وجماعات حراسًا على هذه المبادئ، فليس هناك طرف مسئول وأخر غير مسئول، فالكل راع والكل مسئول، وكل حسب طاقته، فتشيع المسئولية فى المجتمع كله لأن الكل فى سفينة واحدة كما شبه الرسول ﷺ فى قوله: /٤«**مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء**

مروا على من فوقهم. فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»/٤.

وقال تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ** ﴾(الأنفال: ٢٥).

ومن الملاحظ فى الآية الكريمة والحديث النبوى، أن المسئولية الاجتماعية ليست خاصة بطرف دون آخر، ولا بفرد دون فرد. إنما هى مسئولية جماعية لأن السفينة واحدة، فإن غرقت غرقت بكل من فيها وإن نجت فإنها تنجو بكل من فيها. وتربية الإحساس بروح الجماعة والمسئولية عنها لا تنهض بها الدساتير ولا القوانين الوضعية، وإنما تتولد وتنمو فى النفوس من قوة الاعتقاد ونور اليقين

ب - العقيدة حاجة نفسية:

لاشك أن التوازن النفسى من أهم السمات التى تميز الشخصية السوية فى السلوك وفى التفكير، والتوازن النفسى مظهر إنسانى يعمل على إبرازه والتحلى به عاملان مهمان جدًا.

الأول: الاستقرار والأمان والسكينة. وهى علامات ومظاهر خارجية، يلاحظها الناس على الشخص الذى يتميز بهذا التوازن النفسى، وتنعكس هذه المظاهر النفسية على سلوك الشخص وفى حديثه وتفاعله مع الآخرين، وطريقة كلامه. حتى إنك بمجرد أن ترى شخصًا موصوفًا بهذه الصفات وتبدو عليه هذه المظاهر تضفى عليه هذه الصفة "الهدوء النفسى" أو "التوازن النفسى".

أما العامل الثانى: فهو الاطمئنان القلبى. الذى يظهر أثره فى منهج التفكير وطرائق التعبير؛ عما يدور فى القلب من أفكار، وإذا كان العامل الأول يظهر أثره فى السلوك الشخصى فإن العامل الثانى ينعكس أثره على العقل والإدراك، بحيث يتصل العامل الأول بالنفس الإنسانية وآثارها على الجسم الإنسانى، بينما يتصل العامل الثانى بالعقل وطرائق تفكيره فى تحصيل اليقين الذى ينبنى عليه اطمئنان القلب ويقينه، وهذان العاملان من أهم عوامل تحقيق السعادة للإنسان.

ذلك أن النفس الإنسانية تتعدد رغائبها وتتنوع، وتختلف مراداتها وقد تتعارض،

فهى لا تشبع أبدًا من تحصيل الرغبات وتحقيق المرادات، وكلما حصلت على رغبة تختطها إلى غيرها وهكذا، لأن هذا من تمام كونها نفسًا، حتى إن بعض العلماء عرَّف النفس بأنها الحركة سواء نطقت نَفْسًا أو نَفَسًا بالسكون أو بالفتح. وذلك باعتبار أن الحركة من لوازم النفس ومن خصائصها. فإذا ما تسلطت حركة النفس على صاحبها واستخدمته فى تحقيق رغباتها التى لا تنتهى فإن حياته تنقلب إلى شقاء أبدى، فيسعى لاهثًا فى تحصيل مطالبها. وهى التى لا تشبع أبدًا، ولكى تستقر حياة الإنسان ويتحقق لنفسه التوازن المطلوب ليشعر بالسعادة، لابد له من كبح جماح هذه الرغبات. ليس بإماتتها أو محاربتها وقتلها. وإنما بترشيدها وترويض النفس على الاعتدال فى مطالبها، وهذا لا يتحقق للمرء إلا بالسيطرة على نفسه وأن يملك زمامها، والمدخل الطبيعى إلى حسن قيادة النفس هو الاعتقاد بما جاء به الوحى، والإيمان به والعمل بمقتضاه، فتكون أوامر الشرع ونواهيه هى الغذاء الروحى والرياضة النفسية التى تضبط حركة النفس وتقوم المعوج منها، هى الماء العذب الذى يطفئ حرارة الشهوة ويكبح جماحها، . هى البرد الذى ينزل بالقلب فيبعث فيه الأمان والاطمئنان والهدوء والسكينة.

وكم لأرباب الرياضات فى مثل هذه المواقف من تجارب وأهوال مع النفس وأسرارها، وكم سهروا الليالى فى تهذيب رغائبها وترويض جموحها، ولم تصح لهم النفس من عللها ولم تستقم من اعوجاجها إلا بتعاليم الوحى. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)،﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢)، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ (العنكبوت:٦٩)، وما زالت الدراسات قاصرة عن اكتشاف خصائص النفس وسبر غورها والوقوف على كل صفاتها الذاتية، وكلام علماء النفس حولها يدور كله حول ما ظهر لهم منها، حول مظاهرها السلوكية، حول أحوالها وعاداتها، أمراضها الظاهرة فقط، ولكن هناك مناطق

مظلمة فى النفس الإنسانية لا تستطيع اكتشافها ولاسبر أغوارها ولا يحسها إلا صاحبها فقط، وقد لا يحسن المرء التعبير عنها ولا إقامة الدليل على وجودها. رغم وجدانه لها وخضوعه لآثارها. ولعل من هنا كان اهتمام القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه المناطق المغلقة أمام العقل البشرى فى النفس الإنسانية والتى سماها القرآن آيات وأشار إليها أكثر من مرة. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢٠ -٢١)، وفى النفس آيات أيضًا. وقال أيضًا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت:٥٣)

ونلاحظ فى الآيتين أن النفس جاءت معطوفة على آيات الأرض وآيات الآفاق. لتفيد معنى التسوية والمعادلة بين الآيات فى الجانبين فكأن آيات النفس تعادل فى دقتها وعظمتها آيات الآفاق فى كثرتها وتنوعها كما تعادل آيات الأرض فى نفعها وضررها.

إن اكتشاف هذه المناطق المظلمة فى النفس الإنسانية واستثارة كوامنها لا يتأتى إلا بعطاء الوحى. الذى يعلم خفاياها ويعرف أمراضها ودواءها، إنها العالم الأصغر الذى أقسم به القرآن فى مواجهة العالم الأكبر. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(الشمس٧ - ١٠)

إن النفس الإنسانية بحاجة إلى الوحى لكى يأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة، مستعينة فى ذلك بيقين الاعتقاد وسلامة الإرادة ونبل المقصد، وتستمد عونها من الله حتى لا تلعب بها عواصف الأهواء. وقال صلى الله عليه وسلم: «**اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك**»، وقال بعض الحكماء: نفسك إذا لم تجبرها على فعل الخير والطاعة جبرتك هى على فعل الشر والمعصية، ولذلك كانت الاستعانة بالله على قهر النفس دعاء نتقرب به إلى الله فى فاتحة الكتاب وفى الصلوات: ﴿ إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥).

وينبغى أن نعلم أن النفس الإنسانية لا تنتمى فى أصلها إلى عالم الشهادة حتى تستطيع أن تتعامل معها بمنطق العالم الحسى، ولكنها تنتمى إلى عالم الغيب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص٧١-٧٢)، وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾. ولما كانت النفس تنتمى إلى هذا العالم الغيبى، كانت عللها وأمراضها غائبة عن كثير من ذوى العقول، خاصة أصحاب هذه العقول التى تعودت على التعامل مع المحسوسات ولم تتجاوزها إلى غيرها، وبالتالى فإن علاج هذه الأمراض النفسية قد غاب عنهم فى معظم الأحيان، وذلك لغيابهم عن فهم حقيقة النفس الإنسانية، ودعك من الذين يعالجون الأعراض المرضية وظواهرها، ثم يتوهمون أنهم بذلك قد عالجوا أمراض النفس.... لا... إن هناك فارقًا كبيرًا بين علاج الأعراض وعلاج الأمراض ذاتها. إن النفس الإنسانية إحدى مواطن التحدى والإعجاز فى الكون كله. ولقد أقسم القرآن بها لأهميتها ولما فيها من مواطن الإعجاز ودقة الصنعة..

والسكينة والاطمئنان من علامات النفس الصحيحة السليمة من الأمراض. وذلك كله لا يتأتى لها إلا بالتعرف على عوامل الاطمئنان والسكينة من هدى الوحى ومن نور النبوة، وتستمد النفس علاجها لأمراضها من هذا النور الذى هو فى حقيقة الأمر شفاء لما فى الصدور، كما قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء:٨٢)، وقال سبحانه: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحـــــــل:٦٩)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧).

ودائمًا ما ينبه القرآن الكريم إلى الأخذ بمبدأ الوقاية من المرض قبل نزول العلة

بالنفس فيستحكم الداء ويستعصى الدواء، ومن أهم هذه الوسائل الواقية اللجوء إلى الله تعالى، والاستعانة به، والإنابة إليه، وحسن التوكل عليه، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: /٤«**اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك**»/٤، كما كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شرور النفس فى قوله: /٤«**نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»/٤ ؛ لأن قوة الشهوة وغلبة الهوى لا يعين على التغلب عليها إلا الله، فهو المعين وحده على هوى النفس وقهرها وبذكره وحده تطمئن القلوب وتسكن النفوس، فتعرف النفوس أنه لا ملجأ لها إلا إليه ولا عون لها إلا به.

كما ينبغى أن تعلم أن المجتمع كله فى حاجة ضرورية إلى تعاليم الوحى، ليقوده إلى التعرف على غايته الكبرى، ومقاصده السامية التى تتمثل فى علاقة الإنسان بخالقه، علاقة المخلوق بالخالق، وهذا أمر مقصود من الشارع، أن يتعرف الإنسان على أوامر الله ونواهيه، ليستطيع أن يحقق بذلك عبوديته لله وحده، ليعرف كيف يتخلص من العبودية لغير الله، ليعرف أن كل بنى آدم أمام الله سواء، تحقيقًا لمعنى العبودية المطلقة للخالق: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (مريم:٩٣)

ليعرف كيف يتحقق فى سلوكه وعلاقاته مع اللة ومع الناس بمعانى التوحيد الخالص لله ربوبية و ألوهية، فيستمد عزته من عزة خالقه، وسلطانه من قوة إيمانه بخالقه، فيتضاءل أمامه كل سلطان وعلى قدر اعتصامه بهذه المعانى، فإن الله يخلق هيبته فى قلوب الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر خشيته لله يخشاه الناس، وهذا هو حبل الله المتين الذى قصد الشارع الاعتصام به والالتفاف حوله فتتحد الأهواء، وتتوحد المقاصد والغايات، ويكون هوى الناس تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وهذا التوحد يعود نفعه على المجتمع بالدرجة الأولى؛ حتى وإن بدا فى ظاهره أنه من العبادات الدينية، فإنه ينعكس أثره على سلوك الأفراد، سكينة فى النفس وأمانًا فى القلب ومودة وتراحمًا بين الناس.

ج - الوحى حاجة عقلية:

لا ريب أن العقل قد وقف على كثير من المعارف المتعلقة بعالم الشهادة، وكشف العلم عن كثير من أسرار هذا الكون وقوانينه، وأصبح عالم الشهادة أمام العقل أشبه بالصفحة المقروءة التى يتعامل معها العقل؛ فيفهم منها على قدر استطاعته، ولكى يتكامل الموقف المعرفى أمام العقل فإن ذلك لا يتم له إلا إذا عرف العقل الإجابة اليقينية عن الأسئلة المطروحة عليه منذ الأزل. وهى كلها متعلقة بهذا الكون بدءًا ونهاية. من أين؟. وإلى أين؟. ولماذا. وهذه المعرفة اليقينية لا سبيل للعلم إليها لأنها ليست داخلة فى اختصاص العلم التجريبى، كما أنه لا يملك الإجابة عليها، وقد جرب العقل الإجابات المطروحة حول هذه الأسئلة، خلال موقف المدارس الفلسفية المختلفة فلم يجد فيها أمنًا ولا يقينًا بل زادته حيرة وشكوكًا، فمن قائل بالعبثية المطلقة فى تفسيره للوجود بعامة.

ومن قائل بالصدفة.

ومن قائل بالطبيعة والدهر. وكلها إجابات لم تشف للعقل علة ولم ترو للسائل غلة.

فكلها تنفى الغاية والحكمة من وجود هذا العالم ولا ترى فيه إلا العبثية المطلقة كما قال الشاعر الجاهلى قديمًا:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته

ومن تخطئ يعمر فيهرم

وقالوا: ما هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. وكما عبر القرآن الكريم عن موقفهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

ولقد ترتب على هذا الموقف الرافض للغاية والحكمة الإلهية، من الوجود والقائل بالعبثية أن فتش هؤلاء فيما تحت أيديهم من أقوال فلم يجدوا للوجود معنى ولا للحياة قيمة، وانعكس هذا التفسير على سلوكهم رفضًا للحياة بأكملها، وهربًا من الوجود الذى لا معنى له، فكان الانتحار هو المخلص لهم من هذا الوجود العبثى.

والعقل السليم يرفض هذا التفسير ويأباه، وليس ذلك من باب المصادرة على أراء

الآخرين. وليس من باب وضع العربة أمام الحصان كما يسميها البعض، ولكن القضية أمامنا أشبه بالكتاب المفتوح، فمن أراد أن يقرأ بعقل واعٍ خالٍ من الشبهات فعليه أن يطالع صفحة الكون، وأن يتأمل فى كل جزئية منه بدءًا من نفسه هو ومن جسمه هو، ومن حبة القمح التى يزرعها ويأكلها، فإنه يجد لا محالة أن كل شىء فى الكون موظفًا لأداء غاية مطلوبة ولحكمة مقصودة للخالق سبحانه، وكل فرد من أفراد العالم يتناغم مع غيره فى تناسق عجيب لأداء وظيفة كلية للكون بأسره، فالجماد بعناصره الأساسية موظف لخدمة النبات.

والنبات بما يحتويه من مواد غذائية موظف لخدمة الحيوان.

والحيوان موظف لخدمة الإنسان.

وكل فرد من أفراد هذه العوالم المتنوعة. تجد كل جزئية فيه تتكامل مع غيرها لأداء وظيفته الخاصة به بحيث تجد أفراد العالم كلها تتعاون فيما بينها وتتكامل لأداء وظيفة مقصودة وتحقيق غاية مطلوبة.

وهذا التكامل ليس قاصرًا على ما نشاهده فى عالمنا الأرضى فقط، وإنما هو أشد ما يكون ظهورًا فى عالم الأفلاك: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٤٠)

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس:٣٨)، ومن أراد شيئًا من المعرفة بعلم الفلك وما يطالعنا به من آيات باهرة فى دقة النظام الكونى فليراجع ما اكتشفه العلماء من ذلك مما يبهر العقول[٢٩]. عَلِمَ ذلك من علمه، وجَهِلَهُ من جهله والأمثلة الدالة على ذلك تخرج عن الحصر:

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الخالق

فإن عين الإنسان لا تقع على شىء فيما حوله إلا هو ناطق بما لله فيه من حكمة مرعية وغاية مقصودة، ولقد عبر القدماء من مفكرى الإسلام عن هذا الأمر الأهم فى عبارات واضحة وأدلة برهانيه، فلقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الأشعرى فى رسالته إلى أهل الثغر. وجعل جسم الإنسان نفسه آية دالة على ما لله من قصد وغاية

فى خلق أعضائه على هذا النحو، الذى تتعاون فيه وتتكامل لأداء وظيفة الإنسان، فخلق العين فى مقدمة الرأس وليس فى المؤخرة، وخلق السمع والشم والذوق التى هى وسائل الإدراك على هذا النحو التكاملى، مما يدل على أن هناك فاعلاً حكيمًا وأن له غاية وقصدًا فيما خلق، مما ينفى القول بالعبث أو المصادفة، قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١)

ولقد أشار ابن رشد إلى هذا المعنى وسماه دليل العناية، واستدل على ذلك بآيات الذكر الحكيم، ولا شك أن العناية بالمخلوق تتضمن القصد والحكمة للخالق، مما ينتفى معه القول بالعبثية، إن العقل لم يجد فى مذاهب الفلاسفة برد اليقين كما أشار إليه أبو حامد الغزالى، بل زادته آراؤهم حيرة واضطرابًا، هذا من جانب الفلسفة و الفلاسفة.

أما فى جانب العلم واكتشافات العلماء فلا شك أن الإنسان تتملكه الدهشة ويستولى عليه العجب لما قطعه العلم من أشواط ومسافات كبيرة فى اكتشاف مجاهل هذا الكون، فكم من قوانين كونية اكتشفها العلماء. وكم من الظواهر الطبيعية أدرك العلماء أسبابها والعلاقات المتبادلة بينها وبين أسبابها، فعرفوا كيف يوظفون الكون ويسخرون هذه القوانين لصالح البشرية أحيانًا، ولدمارها أحيانًا أخرى، ولا شك أن ذلك كله فى ميزان العلم والعلماء، وكلما ازداد العلماء اكتشافًا لغوامض الكون ودقائقه يزداد علمهم بمدى الجهل والغموض الذى يحيط بهم فى هذا الكون، ولا شك أن كل كشف علمى جديد يعتبر إضافة لرصيد المعرفة الإنسانية بالكون، وفى نفس الوقت يعتبر كشفًا عما كان يجهله العقل، وهكذا تتوالى الكشوف العلمية التى تحمل معها مدى المساحة الشاسعة التى يجهلها العقل ويعرف منها كل جديد.

ومع كثرة هذه الكشوف وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان، إلا أنها فى مجموعها تتعلق بظواهر الكون وتفسير علاقات أفراده، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ

﴿ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ (الروم:٧).

ومع كثرة هذه الكشوف؛ إلا أنها لم تفسر لنا لغز الحياة ولا سر الوجود، وهذا ضلع المثلث الذى لا يكتمل الموقف المعرفى للعقل إلا به والكشف عنه والاعتقاد فيه. إن العلم مع كثرة كشوفه لم يحمل لنا إجابة شافية للعقل من حيرته حول هذه الأسئلة.

من أين؟. إلى أين؟. لماذا؟ والذين اكتفوا بالموقف الفلسفى المادى فى تفسيرهم للوجود ورفضوا الإصغاء لصوت الوحى لم يجدوا لهم بديلاً عنه إلا القول بالعبثية. ودخلوا بذلك فى نفق الإلحاد المظلم الذى كانت نهايته إما الانتحار وإما الارتماء فى أودية الحيرة والضلال، وهم بذلك لم ينصروا حقًا ولم ينصفوا عقلاً.

إن سر الوجود لم يكشف عنه العلم لأن ذلك ليس من وظيفة العلم، ولا من مهمة العلماء، لأن مهمة العلم هى الكشف عن القوانين التى تحكم علاقة الظواهر الطبيعية؛ وكيف يفيد الإنسان منها، كيف يسخرها لصالحه.

إن مهمة العلم وصف الظواهر بحيث يبين لنا ما هى. وكيف حدثت الظاهرة، وأنه يبين لنا الإجابة عن السؤال ما هذا؟ ولكن ليس لدى العلم إجابة عن السؤال لماذا كان هذا الوجود أصلاً. ولماذا كان هذا الوجود على هذه الكيفية دون غيرها، إن العلم يضع أمام الإنسان مشاهدات للوقائع التى يتعامل معها فى كشوفه العلمية، ولكنه لا يحمل الغاية منها، فالإنسان يأكل الطعام. ويعرف الطبيب كيف يتحول الطعام فى جسم الإنسان إلى طاقة عن طريق الهضم والتمثيل الغذائى خلال الجهاز الهضمى، ودوره المعروف للأطباء فى هذه العملية، ولكن لا يعرف الطبيب لماذا تتحول هذه الطاقة فى العين إلى قوة باصره، ولا يعرف لماذا تتحول هذه الطاقة فى الأذن إلى قوة سامعة، ولا لماذا تتحول هذه الطاقة فى اليد إلى قوة باطشة، ولا لماذا تتحول فى الإنسان إلى قوة مدركة عاقلة، ولم يتساءل عنها الطبيب لأنها أصلاً ليست من مهمة العلم، ولو سألت طبيبًا لم تتوزع الأغذية فى بدن الإنسان إلى طاقة تؤدى دائمًا إلى وظائف محددة فى كل عضو من أعضاء الجسم، وأن هذه الوظائف

لا تتخلف أبدًا إلا لعلة طارئة؟ أو كيف تنظم هذه الطاقة وظيفتها فى كل كائن حى. حتى يطير بها الطير فى السماء ويسبح بها السمك فى الماء، ويعيش بها الإنسان على وجه الأرض لكانت إجابة الطبيب عن هذه الأسئلة، إن ذلك ليس داخلاً فى مهمة العلم، إن العلم يصف ما يحدث، وليس من مهمة العالم أن يتكلم عن لماذا يحدث؟

إن معرفة العلل الغائية لهذا الوجود سر لا يكشف عنه إلا الوحى، لأن العلم كما قلنا يتكلم عما يحدث ولا يعنيه التحدث عن العلة الغائية التى هى إجابة عن السؤال... لماذا؟ ولا راحة للعقل إلا باكتمال الموقف المعرفى لديه، وإذا كان العلم قد كشف له عن كثير من دقائق هذا الكون وأسراره، فيأتى دور الوحى ليقول للعقل ما عجز عنه العلم، ويعرفه بأسباب هذا الوجود، ويكشف له عن غاياته وأهدافه. حتى لا يقع العقل فى أودية الحيرة وضلال العبثية. وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥)، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٧) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان:٣٨ - ٣٩).

إن الوحى هو الذى يقدم للعقل تفسيرًا مقنعًا لعلة الوجود وغايته، والوحى هو الذى يقول للعقل إن هناك حياة آخرة بعد الحياة الدنيا، يكتمل بها حكمة الوجود الإنسانى، يكتمل بها الموقف المعرفى للعقل، يكتمل بها منظومة الوجود كله فى ضوء من العدل الإلهى الذى به يكون للوجود معنى، وللأخلاق أثرًا فى سلوك الإنسان.

إن الوجود الإنسانى لو كان قاصرًا على هذه الحياة فقط؛ لكان وجود الإنسان فيها هو البؤس بعينه، ولما كان للوجود معنى ولا للحياة قيمة، فحياة الإنسان تحيط به من كل جانب بما يدعو إلى الإشفاق، فما أكثر الآلام والأمراض، وما أكثر المظالم والطغيان، وما أكثر عوامل القهر والتسلط بين بنى الإنسان، فالقوى متسلط

على الضعيف، والغنى متسلط على الفقير، والحاكم متسلط على المحكوم، وكم من مظاهر الفساد والإفساد فإذا لم يكن هناك حياة آخرة يقتص فيها للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوى، وللشعوب من حكامها، لكان الوجود كله عبثًا. وهذا ما يرفضه العقل وينفيه النقل. قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ (المؤمنون: ١١٥ - ١١٦).

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٨). ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت:٢، ٣). ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧).

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١).

إن قيمة الحياة الإنسانية لا يكون لها معنى إلا فى الاعتقاد بما جاء به الوحى من الإيمان باليوم الآخر كضرورة دينية وأخلاقية معًا، عبَّر عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية.

وهذا الأمر ليس من مهمة العلم الكشف عنه، وليس من اختصاص العلماء البحث فيه، وإنما هو نور الوحى وهداية الأنبياء، لكى يؤمن المرء بعدالة الخالق بين عباده، والتى عبَّر عنها كثير من الأحاديث الصحيحة، حتى إن الله يقتص للشاة العجماء من الشاة القرناء. وإذا كان ميزان العدالة قد اهتز فى يد البشر فى حياتهم الدنيا، فإنه غير قابل للخلل فى يد الخلق سبحانه، وكل هذه المعارف الدينية لا سبيل إليها إلا بطريق الوحى. فتسكن النفوس من حيرتها وتطمئن القلوب. حيث يجد المظلوم

والضعيف والفقير ما وعدهم ربهم حقًا فى الآخرة، كما آمن بمصداقية الوحى فيما أمر به ونهى عنه فى الدنيا.

ومن المفيد فى هذه الدراسة أن نوضح هذه القضية التى تحوم حولها بعض الشبهات؛ من الذين يرون أن العلم قد أغنانا عن الوحى، وأنه حل لنا المشكلات التى عانت منها البشرية قديمًا والتى جعلتها تفكر فى الاستعانة بالوحى لحل هذه المشاكلات، أما الآن وقد حمل لنا العلم حلول هذه المشكلات، فلم تعد البشرية فى حاجة إلى هذا اللون من الاعتقاد فى الغيبيات.. هكذا يقولون.

وقد ينادى بعضهم فى الاستدلال على صحة موقفه هذا، فيحاول أن يخضع النصوص القرآنية لما يسميه بنقد النص، أو تأويل النص، أو إعادة قراءة النص قراءة عصرية، أو إعادة التفسير فى ضوء الواقع أو... أو... إلخ ما يقولون.

ولو خاطبنا هؤلاء بلغتهم لقلنا لهم: إن العلم لا ينكر الوحى ولا يتضمن العلم نفيًا للوحى ولا إنكارًا للنبوة. بل على العكس قد فتح العلم بكشوفه الرائعة عن حقائق كانت فى طى الغيب قربت للعقل إدراك ما كان يظنه مستحيلاً. أو غير مقبول فى تصوره.

وقضية الوحى فى أساسها لا يملك العقل برهانًا على إنكارها، فهى فى أصل ثبوتها ليست مما يحيله العقل ولكنها ليست مما جرت به العادة بين العقلاء، وهذا أمر لازم لها، فهى ليست من قبيل العادات ولا الأعراف التى تعود الناس على معايشتها؛ حتى يتقبلوها بسهولة، ومن هنا كانت محل إنكار من الكافرين بقضية النبوة، والسبب الرئيسى فى هذا الإنكار هو عدم التعود على مشاهدة هذه الحالة، وهناك فارق كبير بين المستحيل العقلى والمستحيل عادة. ومن الخطأ منهجيًا أن يحمل الناس المستحيل العادى على المستحيل العقلى، وهذا يفسر لنا موقف المشركين من الرسل جميعًا حين دعوهم إلى الإيمان بهذا الوحى، فقالوا للرسل: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ (يس:١٥)، وقالوا: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ (إبراهيم:١٠)،

وقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الحجر:٦ -٧)، وقالوا: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (المؤمنون:٣٤)، ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:٧)، ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١)

وقالوا غير ذلك: كثيرًا، وعند تأملنا هذه الاعتراضات الواردة على الرسل نجد سببها هو مخالفة هذا الأمر لما تعودوه وتعارفوا عليه من ألوان المعرفة العادية، ولما كانت الكهانة والسحر من الأمور الشائعة بينهم فقد نسبوا الوحى إلى هذه الظاهرة، فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر، وقالوا للرسول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:٦).

وفرعون -قديمًا -لم يجد عنده ما يعارض به نبى الله موسى إلا اتهامه بالسحر، ولذلك جمع له كبار قومه فى فنون السحر. ولما وقفوا على حقيقة ما مع موسى عليه السلام أدركوا أنه ليس من جنس بضاعتهم، ولهذا كانوا أول من آمن برب العالمين رب موسى وهارون، وقال فرعون لهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء:٤٩)، إلى غير ذلك من وسائل التهديد بالعذاب والهلاك فما كان جوابهم إلا أن قالوا لفرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:٧٢:٧٣)

وعلى هذا النحو كانت قضية الرسل مع أقوامهم فالنبوة أصلاً أمر غير عادى.

والوحى كوسيلة معرفية غيبية أمر غير عادى، ودعوى الأنبياء أنهم يخاطبون بوحى

من السماء أمر غير عادى، ودلائل صدق الأنبياء من الآيات والمعجزات أمر غير عادى، ولكن السؤال الضرورى هنا هل لأن هذه الأمور كلها فوق عادة البشر تكون بالضرورة مما يحكم العقل باستحالتها؟.

الجواب هنا بالقطع لا. فإن العقل لايحكم باستحالة هذه الأشياء. ومن يملك برهانًا قاطعًا على القول بأن هذه الأمور مستحيلة عقلاً فليظهره.

إن كل ما يدعيه الرافضون للوحى أنهم لا يعرفون دليلاً عليه، ولا يملكون برهانًا على صحته.. وقد يضيفون إلى ذلك دعواهم أن هذه القضية لا تخضع للتجربة الحسية وبالتالى فهى ليست قابلة للصدق.

وهذا أقصى ما ينبهون إليه من دعاوى الإنكار. ولكن من قال: إن عدم معرفتهم بدليل نزول الوحى يعتبر دليلاً على عدم وجوده؟

من قال إن عدم وجدان الدليل دليل على عدم وجود الدليل فى نفسه؟

وهل إذا جهل بعض الناس دليل نسبة كتاب المنطق لأرسطو، أو لم يعلم أصلاً بوجود أرسطو كفيلسوف هل عدم علمه بوجود أرسطو يلغى وجوده فى نفسه، ويعتبر ذلك دليلاً كافيًا على صحة قوله.

من الذى قال إن التجربة هى الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة الرأى أو خطئه. إن هناك كثيرًا من المعارف اليقينية لا تخضع فى ذاتها للتجربة ولا يملك أحد إنكارها.

نعم إن التجربة مسلك علمى صحيح لايشك أحد فى نتائجها إذا استوفت شروطها العلمية، لكن التجربة ذاتها لها عالمها الخاص الذى يخضع لها وتعمل فى دائرته وحدوده، لكن التجربة لا تحمل معها دليلاً على أن كل ما لم يجرب من المعارف لا يكون صحيحًا، إنها لاتنفى وجود الأشياء التى لم نجربها كما لاتنفى قياس أشياء لم نشاهدها؛ على أشياء شاهدناها تجريبيًا. وهذا فى حد ذاته كاف للحكم عليه بما شاهدناه فى نظيره ومثيله. وهذا هو القياس العلمى وهو كالتجربة المباشرة تمامًا فى إفادة اليقين، والتجربة لاتعتبر حقيقة علمية لمجرد إننا شاهدناها، والقياس عليها لا يعتبر باطلاً لمجرد أنه قياس.. وقد توصل العلم إلى اكتشاف كثير من الوسائل المعرفية التى قربت إلى الأذهان إمكان الوحى عقلاً كوسيلة من وسائل المعرفة،

ولعل ما أورده بعض العلماء المهتمين بهذه القضية من أمثلة الاختراعات الحديثة والكشوف العلمية ما يبرهن على صحة هذه القضية[٣٠].

الهوامش:

(١) انظر: رسالة أبو الحسن الأشعرى، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

(٣) رواه مسلم ١٨٨/٧ باب تحريم سب الصحابة.

(٤) رواه البخارى بلفظ مختلف ٨/٥ كتاب أصحاب النبى ﷺ.

(٥) راجع الرسالة ص .٩٩

(٦) رواه البخارى (٣١٩) ومسلم (٢٦٥٨).

(٧) رواه البخارى (٣٩).

(٨) راجع كتاب الوحى والإنسان العدد السادس من سلسلة تصحيح المفاهيم.

(٩) رواه مسلم.

(١٠) رواه الخمسة إلا البخارى.

(١١) رواه الترمذى والنسائى.

(١٢) أخرجه البخارى.

(١٣) أخرجه البخارى ومسلم.

(١٤) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(١٥) رواه البخارى ومسلم.

(١٦) رواه الترمذى وأحمد.

(١٧) رواه أبو داود.

(١٨) رواه مسلم.

(١٩) رواه مسلم والترمذى وأبو داود.

(٢٠) رواه أحمد والترمذى وأبو داود.

(٢١) أخرجه البخارى.

(٢٢) رواه أحمد.

(٢٣) رواه الترمذى.

(٢٤) رواه ابن ماجة.

([٢٥]) رواه الترمذى.

([٢٦]) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

([٢٧]) رواه البخارى ومسلم.

([٢٨]) رواه مسلم فى كتاب الإيمان.

([٢٩]) راجع فى ذلك اللّه يتجلى فى عصر العلم، الأسهم يتحدى لوحيد الدين خان، وكتابات الدكتور زغلول النجار ومحاضراته الرائعة فى التلفاز حول هذه القضية.

([٣٠]) راجع فى هذه الأمثلة: الإسلام يتحدى. وحيدالدين خان ص ١٥٠ -١٦٠ حيث نقل أمثلة كثيرة عن الإنسان ذلك المجهول، اللّه يتجلى فى عصر العلم، العلم فى منظوره الجديد.